فضـة المصطفى

حول مفهوم القبيلة في علم الاجتماع الاستعماري

يقول اليوت سكينير Eliott skiner، وهو انتربلوجي وسفير لجمهورية فولتا العليا بالولايات المتحدة سنة 1976 : (من الحزين جدا أن يكون لفظ «القبيلة» بجميع خلفياته البدائية والتقليدية هو الاسم الذي نطلقه على الهوية التي نستعملها في افريقيا المعاصرة للحديث عن الجماعات المتنافسة على السمعة والسلطة.

إن البعض من الاسماء المستعملة اليوم كرموز لعدد من الجماعات، يُحيل الى وحدات سوسيو ــ ثقافية مختلفة في الماضي، غير أن معظم ما يطلق عليه اسم «جماعات قبلية» كان من صنع وخلق الحقبة الكولونيالية، وحتى تلك التي يمكن ان تدعي أنها استمرار للماضي فقدت مجمل خصائصها التقليدية الى حد يمكن معه اعتبارها وحدات جديدة)[1]

فلنتساءل الآن، أهي أزمة مفهوم أم أزمة أسس؟ هل هو سفر اثنلوجي تناقض فيه حقل تبلور المفاهيم مع حقل تطبيقها؟ كيف نشأت هذه المفاهيم داخل زمن الخروج الاثنولوجي الغربي زمن البحث عن فضاء حيوي، وبوادر خطاب اثنولوجي متمركز على ذاته؟ قد نتساءل عند تصفحنا لمجمل المونوغرافيات والكتابات، أو على الاصح، الادبيات الكولونياليه عن السبب الذي أدى الى غزارة هذه الكتابات حول القبيلة بالضبط، لماذا الاهتمام بالقبيلة اذن ؟ أهي نقيض المدينة كيف تم تصور القبيلة ؟

إن اسئلة من هذا النوع لن تتم الاجابة عنها الا في اطار المشروع السياسي لنشوء الممارسة الانتروبولوجية، (ذلك أن المشاكل الاثنولوجية ليست مشاكل علمية بقدر ما هي مشاكل سياسية، ولهذا لا يمكن معالجتها الا سببا سببا)[2]

ان ذلك بالضبط هو ما يؤكده EDMOND Burke في مقال له يقول : (أتمنى أن أكون اظهرت أهمية الذات ليس فقط من أجل فهم واستيعاب اوائل مراحل البحث والدراسات الاثنولوجية في المغرب، ولكن كذلك لما تعلنه صراحة أو ضمنا عن العلاقة الموجودة بين السيوسيولوجيا والسياسة في المجتمع الفرنسي قبل الحرب العالمية الاولى).

1 ــ لماذا الاهتمام بالقبيلة ؟

إن تصفحنا لمجمل كتب ومذكرات رحلات الباحثين القادمين الى المغرب في فترة ما قبل الحماية يظهر لنا، وبطريقة مهزوزة، قالبا لغويا أصبح هو النسق المرجعي لكل النعوتات

والتصنيفات التي انصبت على المغرب كحقل تجريبي لها فتارة يقرأ التاريخ القديم لفهم المغرب الحديث، وتارة اخرى يقرأ المغرب الحديث على أنه يشكل مرحلة طفولية لنمو الحضارة الغربية.

ان التركيز على القبيلة ليس سوى حديث يهدف أساسا الى اظهار الطابع التقليدي والبدائي الوحشي لمجتمع قابل للرسالة الحضارية التي تكلفت فرنسا بنشرها في المغرب. ومن ثمة فقد جندت مجمل طاقاتها الجسدية والمالية في مشروع تهييء أساسه — بعد تجربة الجزائر العنيفة والاستفادة منها — معرفة الميكانيزمات الداخلية للمجتمع المغربي، للتمكن من السيطرة عليه. وفي هذا الاطار يتحدث عبد الكبير الخطيبي عن هذا المشروع قائلا (الخلاصة هي ان السياسة العلمية لما بين 1912 — 1925 كانت قائمة على الرغبة في ادراك الحركة الداخلية للمجتمع المغربي، وهي سياسة علمية أساسها المنطق التالي : بعد استسلام البلاد بالقوة يجب الشروع في التشييد الذي لا يمكن ان يتحقق الا بغزو القلوب والعقول، ولهذا يجب اقامة تفاهم أخوي وتعايش سلمي مثمر أساسه ادارة ملائمة ومعرفة دقيقة بالتقاليد والاخلاق، ولقد أدى انسحاب ليوطي سنة 1925 الى ازالة بعض الغموض في النظام الاستعماري حيث فتح الميدان أمام سياسة علمية يسودها الميز والعنصرية)[3]

نعم غزو القلوب والعقول، انه غزو علمي أساسه الكلمة، أساسه اللغة اجهزة الفكر، يصبح فيه الانسان على حد تعبير «ميشيل فوكو» (وجها بين اختراع لكلام ونمطين من الوجود)[4] فعوض العنف، تأتي البعثة العلمية التي ستصبح القسم السوسيولوجي في ادارة الشؤون الاهلية. وعوض الحديث العلمي عن المغرب تنجز أعمال الضباط، ضباط الشؤون الاهلية عن القبائل في اطار «الارشيفات البربرية» ومجلة «هسبريس» لتصير بذلك لغة مراقبين مدنيين. الكل يصب في مشروع ليوطي، الكل يصبح على شكل ولاء واخلاص لروح ليوطي، الكل ينطلق منذ البداية من قطب مظلم الى قطب النور، وفي عالم كتاباتهم يتحول ليوطي الى مشعل يخرج المغرب به من الظلمات الى النور.

في قلب هذه الكتابات يُتحدث عن القبيلة، للتأكيد على ان المغرب قبلي، وعلى أنه قديم، يُتحدث عن القبيلة انطلاقا من المدينة الغربية، ويختلط عالمان في كتابة واحدة، يدور الغرب فيها حول نفسه ليقذف الآخر خارج المطلق الوحشي، نسمع صرخات حضارة الرشد تخاطب ماضيها الابن :

(ايها المغرب المظلم، ابق على ما انت عليه، سورا أمام الاشياء الجديدة أدر ظهرك الى اوربا، واستكن الى الاشياء القديمة، زد في نومك، واستمر في حلمك القديم لكي تكون على الاقل آخر بلد يتلو فيه الرجال صلواتهم)[5]

هكذا يفتتح الكاتب — الطبيب كتابه بهذه المقدمة التي يظهر فيها «نواياه» الحسنة، لا يقاظ المغرب القديم من سباته الذي ما فتيء يغربه بجماله السامي وضربات «الكنبري»

الأيمة وأنين الغيطة المتوحش، فتصبح العلاقة محكومة بقنوات إغراب، تقفز من الخطاب العلمي لترتمي في احضان الموسيقى. يصبح المغرب اذن فلكلوريا يشاهد من الخارج ويمارس فيه «الاسياد المفكرون» لغة اسقاطية غريبة وبعيدة عن الواقع كل البعد. ضمن هذا الاطار المرجعي ستتبلور فيما بعد مداخيل وارضيات الدراسات التالية لهذه المرحلة وسيتشكل نظام القول والانشاء الذي سيطعم أي حديث ويتخذ المغرب كتجربة كتابة تصاغ على شكل نصوص تنقب في الماضي لشرح الحاضر.

سيكون من المشروع اذن ان نتساءل عن مفهوم القبيلة، أهي إطار فعلي أم إطار نظري في حقل نظري غريب عن الواقع الذي افرز هذا النوع من التنظيم الاجتماعي ؟ فباسكون Paul Pascon يصرح بان ابن خلدون نفسه لم يعش ولم ير قبيلة بالمفهوم المتعارف عليه للنظام القبلي في المغرب.

في اي حقل دلالي تمت عملية الصنع هذه اذن ؟ في اية ظروف يلفق مثل هذا «المثال / النموذج» لنمط من العيش يوجد في النظرية ويفارق واقعا هو بريء من تسلسل التحليل الغربي. عند تصفحنا لهذه الكتابات الشبه السوسيولوجية والاثنولوجية والشبه الاثنلوجية منها، نجدها تجمع بين النص العربي المتمثل في الخلدونيات والاستقصاء، والنص الغربي المتمثل في الدوكيميات التي ألهمت كلا من أدموند دوتي Doutté وملياس وشارل د. فوكو، ومونطان وبيرك الخ... لن أطيل في هذه المراجع بل سأختصر هذه المقدمة (واقول مقدمة لانها ليست سوى تمفصل لمشروع لازال بكرا) في الاشكالية : لماذا الاهتمام بالقبيلة بالضبط، ولماذا شكلت لازمة أو نواة الكتابات حول المغرب.

يقول اندري آدام André Adam (ان رؤاد السوسيولوجية المغربية، سالمون SALMON ودوتي Doutté وميشو بيلر M.Bellaire ومولياس، يعطون صورة للمجتمع المغربي يطبعها لون سائد، ألا وهو لون (القديم). ألم يعملوا على تقوية هذا اللون لا اراديا وبدون وعي منهم لكي يبرروا ويعطوا مشروعية منذ البداية للتدخل الفرنسي، بحكم وطنيتهم التي اظهرت لهم أنه مفيد ونافع)[7]

نكرر، والتكرار في الخطاب نفسه بأن التركيز على طابع القِدَم والتوحش، المتمثل في الصفة القبلية التي نعت بها المغرب ينقلنا من السلطة والعنف العسكريين الى السلطة والعنف النظريين : عنف الخطاب الذي يتبخر فيه التاريخ لتصبح القبيلة بدونه عنفا يخفي ويختفي وراء حقل لغوي في جميع حيثياته اللسنية، والتي لسنا بصدد الحديث عنها الآن. كل ما يهمنا هو ان المشروع الاستعماري أراد في البداية فهم ميكانيزمات التركيب الاجتماعي من عادات وتقاليد وممارسات، لكي ــ وهذا ما سيظهر لنا بعد التوغل الاستعماري في المغرب ــ يفرغها من محتواها الحقيقي ويدمجها في كيانه، وكل ذلك في فضاء سياسة الدمج والتهدئة «كان

هدف البعثة هو وضع فهرست للمغرب ولمدنه وزواياه، ولأصُولها وتفرعاتها، وللصراعات والتحالفات، مع تتبعها في التاريخ، عبر مختلف الاسر المالكة ودراسة مؤسساتها وعاداتها (...) وباختصار، التعرف في حدود الامكان على الارض التي قد نُدْعَى ذات يوم للتدخل فيها، فتسهل لنا هذه المعرفة التصرف ونحن على اطلاع جيد...»[8]

كانت هذه القولة لمشو بيلير الذي أصدر سنة 1960 مجلة «العالم الاسلامي» تحديدا لمهمة البعثة العلمية التي انشأها le chatelier سنة 1904، وهي تظهر اذن سياسة الاستعمار بطريقة علنية وصريحة، والتي حدد ليوطي معالمها، فليس من الغريب اذن ان تصبح القبيلة اجابة على سؤال مطروح سلفا كان لابد، وفي سيرورة التهدئة، من تهيىء طريقة الغزو خصوصا وان ليوطي يحمل شعار «يجب معرفة الناس للتمكن من السيطرة عليهم» ومن صميم اعتقاده هذا عمل على خلق رباط أسماه «الجبل الصالح جينوفييف La montagne Sainte Genévieve». وهي عبارة عن مدرسة عليا لدراسة اللغة العربية واللهجات البربرية، والتي اصبحت فيما بعد «معهد الدراسات العليا المغربية» ومن اجل البحث انشأ لجنة الدراسات البربرية التي ابتدأت سنة 1915 في نشر مجلة «الارشيفات البربرية» والتي أخذت المكان فيما بعد «لمعهد الدراسات المغربية العليا» والتي اخذت منذ 1921 اسم «هسبريس» Hesperis. يقول ليوطي :

(ولقد عملت أكثر من المستطاع، اقصى جهدي اساهم في تحقيق هذا الحلم : لقد مارست التوغل الهادىء عشر سنوات لاختراع الصيغة (...) وللتعريف بالمغرب وجذب الاهتمام اليه من طرف مواطنينا. ولقد عملت ما في وسعي لتهيىء المراحل الثلاث الاولى للتهدئة : الدار البيضاء، فاس، مراكش)

سيكون التمهيد لسياسة الردع بتقديم المغرب على انه مَغْرِبٌ فَوْضَىٌ، مغرب تشتُّتٍ تسودُه العصبية، ويحتاج الى الوحدة والمساعدة، خصوصا وان الحوار والنقاش أصبح دائرا بين رحى ثنائية تستدعي الفصل بين جزئيها. هذه الثنائية تتجلى في كون القبيلة تقدم بغض النظر عن بدائيتها كنقيض للمخزن. ان القبيلة تبحث عن مخلص لها من سلطان المخزن، علما منا بان السياسة الاستعمارية قد اعتمدت في مشروعها على اظهار وصبغ المخزن وابرازه على شكل تمثال ضرائبي، وجهاز مقرون به. وبالمقابل تُقَدَّمُ القبيلة كطموح للاستقلال والحرية. نحن هنا، وكما قلنا، ندور في فلك ثنائي يأتي على شكل ازدواجي (المدينة / القرية) (عرب / بربر) (مخزن / سيبة). ان الشطر الاول في كل ثنائية انما يرمز في هذه الدراسات الى الخير والايجاب. ويرمز الشطر الثاني الى الشر والسلب. نحن اذن أمام جهاز مفاهيمي في جميع منعرجاته الاضمارية، أمام خطاب لا أمام واقع. تتحول كلمة بربر وتحيل الى الغموض والنوعية والخصوصية. ان حقلها الدلالي انما يطبعه العماء (chaos)، فمرة تعني اللا نظام، ومرة أخرى تخرج عن ذاتها لتنزلق في قعر الماقبل النظام، انها ترمي بنا الى الجاهلية، إلى بلد لم يستطع السلطان تنظيمَه أو

غزوه. لقد كانت هذه الدراسات المتعلقة بالمغرب سواء ما قبل الحماية أو بعدها تظهر السلطان في اطار هذه الثنائية انسانا طاغيا، جشعا، وفي نفس الوقت تنقصه الامكانات والوسائل، فهو كذلك ينتظر المخلص المتمثل في الاستعمار، في انتظار القوة المتمركزة على ذاتها والتي تتكفل في رسالتها بنشر الخير العام، واتمام الوحدة الذي يستحيل تحقيقه وبالضربة نفسها سيضمن للسلطان ولاء شعبه.

تنجذب أطراف الاشكالية بين حدين، بين ما كان عليه المغرب وما سيصبح عليه، بين ماضيه وحاضره، الماضي المغرق في التخلف والجاهلية وما سيصير عليه على يد هؤلاء الاسياد المفكرين، فينقلب الخطاب وتختلط الاشياء في نطاق النية الحسنة المعلن عنها سابقا. ويصبح في اطار هذه البعثات ــ ان الاستعمار مساعدة والاستغلال شفقة، سيحمل مشعل العهد الجديد ليقول ادموند دوتي (أن تكون بعثتنا قد أفادت في شيء بالنسبة لوطننا كل الحماة يرجون ذلك، فليتقبلوا اليوم هذه الخطاطة البسيطة لما كان عليه المغرب، والذين ادخلوه في عهد جديد، وبعد قياسهم لامتداد هذا التطور المذهل امكنهم القول آنذاك : هاهي ذي الخدمة التي انجزناها)[9].

تنجز الخدمة في خضم الكتابة التي تنمو نحو غاية، فيحتل فيها المركز متانة القداسة بالسبة لمحيط مُدَنَّس تجرى فيه التجارب على الانسان، ينقلب فيه المغرب الى مَخْبر، فتكون عملية الكتابة ملغومة منذ البداية في شكلها الايديولوجي السافر، تضع لائحة للنعوت ينظر فيها الى البربري باعتباره ظلا ورمزا قبْليا من أصل جرماني، كل ذلك في اطار مسلسل كون سكان المغرب الاولين هم البرابرة أبناء مازغ، وقد ذهب البعض الى حد اعتبار القديس اغسطين بربريا، فيتساءل عما اذا كنا أقرب الى اوربا منا الى الشرق. وهنا أيضا يظهر منطق التبرير جليا، يتحين الفرص فيسقط في فخاخ الاصول، يبحث عن بداية الاشياء ليجتثها من جذورها، يبحث عن الاصل قصد سبك ثنائية تدخل من جديد مسرح الكتابة، وتتجلى هذه الثنائية في (الرحل / المقيمين) في سيرورة وغياب جدلية (الجبل والسهل)، ويزعم هذا المنطق اقناع وطمس سياسة الادماج لكي تصبح طعاما سهل الهضم، يتحدد فضاؤه المجازي في سهولة التبرير الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة».

ان دراسات ما قبل مرحلة الحماية والتي كما قلنا سالفا، بأنها مهدت الطريق لسياسة التهدئة، قد أقامت علاقة نوعية بين الأنا والآخر، علاقة يطبعها الاغراء والغرائبية Exotisme، تحلم بمغرب يتطور في ظل وتحت رحمة فرنسا، ويكلِّل باحث طبيب هذا الخطاب بالافتتان، فيقول سكربر :

(لقد فتنت بالتواضع وحسن الضيافة المغربيتين، والنزه الطويلة عبر القفار المزهرة، غرابة المدن القديمة الميتة، حدائق مهجورة واطلال وبقايا.. لقد تلذذت بكل هذا كثيرا إلى حد أني لَمْ اكتشف الفساد والظلم والجشع والقساوة والرشوة والفقر المدقع الذي يختفي وراء هذا

المشهد الخارق، ومن ثم، لم تعد لدى سوى فكرة [...] رؤية المغرب وهو يتطور في طريق اكثر عدلا، اكثر سعادة، اكثر حرية، تحت حكم فرنسا)[10]

هكذا تبتدىء وتستمر عملية المسخ، فتصير القبيلة جسما فارغا، هيكلا عظميا تتصدع فيه الهوية ويعاد تركيبها لكي تكون صالحة من جديد : قالبا ووسيلة للتغلغل الاستعماري في اطار اللعبة المنطقية الجديدة. ستصبح جسرا ومَعْبَراً للاستعمار، تنقلب فيه الانتفاضة الى فتنة وفوضى. ولابد ان الاستعمار تساءل في البداية عن سبب مقاومة القبائل للمخزن، وعن سر حفاظ هذه القبائل على ما اصطلحت عليه الكتابات باسم «الجمهوريات البربرية» تارة، وتحت شعار الديمقراطيات البربرية تارة أخرى. هناك اذن مقاومة قبائل في صراعها مع المخزن. وقد تنقلب الاشياء، فيصبح السؤال : لماذا المقاومة ؟ بديلا عن سؤال لماذا القبيلة بالذات ؟ ولكي نسيطر ـــ حسب ليوطي ـــ يجب ان نعرف معرفة جيدة سر هذه المقاومة، ونبرر معرفتنا. وان نفكر معناه ان نسيطر.

وضمن هذه الدراسات التي جذبت اهتمام الرحالة الباحثين الاجتماعيين، تبلورت صناعة لغة من نوع خاص، لغة مجتمعات «بدائية»، ما فتئت تبحث عن حقل تجريبي لها، يستقبل ولو على مضض، مضاعفات، وانتاجات المعرفة الغربية، كمعرفة لها تاريخها الخاص وأرضيتها الميتافيزيقية. نقول في هذا الصدد إن بعض الباحثين الانكلوسكسونيين استطاعوا إقامة جسر ومعبَر لولوج هذا العالم الغريب والمثير : غريب؛ لما يحتوي عليه من تعقيدات تفوق حدود الفكر الغربي، ومثير؛ بما أنه يمثل لغة الاصل ومشروعية التاريخ المتصاعد، ان لم نقل فكرة التطور المتقدم.

نقول ضمن هذا النوع من الانشاء والقول الانتروبولوجي ـــ علم الاناسة كما يترجمه كثيرون ـــ إنه قد كان عليه أن يتخلى ولو نسبيا عن فكرة السيطرة والعنف والدمج الكلي في الانا المفكر الغربي، لاقامة معرفة تنمو نحو الانفصال عن السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتأخذ لها مكانة خاصة ضمن المعارف الاخرى، فتكون بذلك قد وضعت بداية التنسيق لمعرفة، وتصورات، ضمن مقولات ولوازم وحدود كالمجتمعات «البدائية القبلية» وعن القرابة كعلاقة خاصة بهذه المجتمعات.

ان التعرض للقبيلة، وصياغة هذا المفهوم، لم تطرح في جو معرفي خالص بقدر ما كانت تشابه سلطة من نوع خاص ـــ سلطة الاستعمار ومشاريعه.

والتاريخ في هذه الحقبة يُترك لحفنة من الاثنولوجيين، يعملون على إتمام وتكملة تاريخ الحلقات الفارغة في تأصيل جذور شيء قد يظهر انه ناقص، لاتمام خريطة الانسانية، لاول مراحل الانسان الذي لم يترك تاريخا مكتوبا. ومع ذلك يتحدث هنري مونيو Henri Moniot، عن كتابة نوع من التاريخ من طرف مكتشفين وعسكريين ومبشرين واداريين، فلقد وجدوا

وثائق واستعملوها لتوضيح الهجرات واشكال الهيمنة السياسية والتبادل الثقافي. فقد ظهر ان بعض هذه الدراسات كانت جدية، ويتميز معظمها بالتجريبية والعصامية، وكان البحث يتم في عزلة ودون صدى أو سند جامعي. ويضيف (مونيو) معلقا على هذه الدراسات في شكلها المؤسساتي، كالمدارس الاتنولوجية من النوع «التاريخي الثقافي» : «بانها اكثر صلابة في البلدان الناطقة بالالمانية وفي الولايات المتحدة الامريكية التي اهتمت باعادة تركيب ثقافات متتالية مع ماواكبها من أشكال الانتشار والتأثير المتبادل، وبعد ذلك جاءت الدراسات حول «التثاقف»، وكان تركيزها على عمليات الاتصال الثقافي وليس فقط على نتائج ذلك الاتصال، وقد أعطى هذا المنحى أعمالا أقرب الى المنظور التاريخي، إلا أنها تنزع الى التحليل الميكانيكي، وتستوعب الجوانب النفسية أكثر من اهتمامها بالخصائص الاجتماعية والعلاقات الشمولية للمجموعات المعنية»[11]

هكذا يكتب تاريخ الشعوب التي لا تاريخ لها، وتستعاد الذاكرة المفقودة، الذاكرة المثقوبة، مادام التاريخ في الادبيات البربرية يُختلق ويُعاد صنعه من جديد، تاريخ يدور في دوامة الوهم الايديولوجي، وهْم الحماية، وسيغدو هذا التاريخ الذي تمت كتابته حول البربرية تاريخيا يعرفنا بالفرنسيين أكثر مما يعرفنا بالبرابرة أنفسهم، فقامت فرنسا بفرنسة البرابرة، وليس العربي سوى غاز لهذه الشعوب. ينبغي الاعتماد على البربري إذن ضد العربي الذي يمثل كل صفات الشر والتعصب، وكما يقول بول كواتلن Paul Goatlen «لا نريد البرابرة لانهم طيبون (أعني لا نريد فرْنَسَتَهُمْ) ولكنهم كذلك، لاننا نريد فرنَسَتَهُمْ»[12]

ان ما يفصل العربي عن البربري في هذه الدراسات هو العِرْق، فكل واحد ينتمي الى وحدة عرقية معينة وخالصة، لها خصائصها. ومن ثم تبتدىء صيرورة استخراج أحكام قيمية مسبقة تتعلق بنقاوة العرق وصفائه، فتتكلم سيكولوجية البربري لغة تختلف عن لغة سيكولوجية العربي. نحن الآن في عالم الايديولوجيا، عالم القيم، تصبح فيه القبيلة البربرية ممثلة للاهالي، والانسان العربي ممثلا للمستعمِر (بالكسر)، أما الانسان الفرنسي فهو يمثل المستعمِر من الدرجة الثانية، لكنه يحترم التقاليد والاعراف، يحترم الانسان البربري ضد الانسان العربي، واللعبة العرقية انما تستفيد هنا من التجربة الجزائرية، ويكون فيها ليوطي رجل حرب وسلم. يحث القواد ذوي الأعمال القيمة والحسنة على القيام باعمال جدية لخدمة الاهالي، أي البربر. يقول : (في هذا العمل البناء سيكون انتاجكم قياديا، ولذا نعهد اليكم دون تخوف بمهمة التعريف بالحياة المغربية ومشاكلها لضباطنا الشبان الذين يرغبون في خدمة الشعوب الأهلية. وهكذا فإني أرى في معهد الدروس العليا المغربية أكثر الاعوان فائدة في السياسة الفرنسية في الارض الافريقية)[13] إن المستعمِر هنا يبحث عن وسيلة يصبح معها الاستعمار مشروعا، ويبحث في الوقت نفسه عن اعتراف به. ان السيد يحتاج الى عبد لكي يحقق ذاته ضمن لعبة الثقافة العالمية. وكما يقول بول كواتلن Paul Coatlen «لقد نظر الى البرابرة على أنهم ليسوا عربا

وانهم ضد المخزن. إن البرابرة ليسوا كالآخر الذي يقاوم الحضارة الفرنسية، والذي لا يريد أن يتخلى عن حضارته، كالانسان العربي المتعصب العاصي. ان البربر ضمن هذه الرؤية يصبحون أجداد فرنسا الثقافيين» وكما يضيف كواتلن تظهر الطريقة الكلاسيكية التي يصبح فيها الآخر «ثقافة خارجية» تفكر كاللاءخن انطلاقا من مفاهيم سلبية من نوع «مجتمعات بلا كتابة، بلا تاريخ، بلا مَكْنَنَةٍ أو ليست لهم عقلية صناعية ؟ ان راحة وهدوء المستعمر ينم عن قذف وكبت الآخر في قلب الظلمات، ظلمات اللاموجود لتغييب هويته، ويصبح العربي بدون هوية. أما البربري فمعه تصبح العملية متمفصلة كالاتي (البربر ليسوا عربا. الشيء الذي يعني أن البربر ليسوا اللاءخن، اذن انهم مثلنا منذ ثلاثة آلاف قرن)[14]

هكذا يمكن استخلاص بِرَكْمَن القبيلة كانت لَازِمَةَ هذه الدراسات، مع اقترانها ضمن شبكة العلاقات اللامتكافئة بالمشروع البربري. منذ البداية، ونحن نؤكد ان القبيلة هي هذا الكل الذي يحضر على شكل خطاب. مرة في شكل بربري يمثل القبيلة ويرمز اليها ومرة في شكل القبيلة التي تمثل البربري وترمز اليه. كل ذلك قصد سياسة ادماجية تتصيد منطق التبرير والادانة. يقول ميشو بيلير (هكذا كانت عقائدنا، إلا انه يجب أن نتمنى ما هو أفضل من ذلك للوصول الى تحقيق الخير، أو على الاقل الى توسط في الامور لتفادي الاصطدامات الخطيرة، ذلك هو الغزو الاخلاقي الذي يجب تحقيقه)[15]

فما هي خصوصية هذا المفهوم ؟ إلى اي حد يمكن اعتبار مفهوم القبيلة مشيرا الى واقع بعينه داخل الانتربولوجيا الغربية ؟ ما هي الحُمُولات التي تشبَّعَ بها، وما تشرباته خلال تاريخه الخاص، اذا كان له تاريخ ؟ أهو وَهْمٌ أم واقع ؟ اختلاف نظري أم وجود فعلي ؟ أسئلة من هذا النوع لا تجوز الاجابة عنها إلا بعد تمحيص الارث الثقافي الغربي الذي عاصر نشوء هذا المفهوم : أهي أزمة مفهوم أم أزمة علم تم احرازه في حقل خاص وضمن ظروف اجتماعية اقتصادية وسياسية خاصة ؟

مراكش

هوامـش

I- Maurice Fodelier
Horison. Trajets marxistes en authropologie p. 191.
II- Actes du duhram. n° double 138-139 Edmound Burke p. 52 - 1979
III- Abdelkbir El Khatibi 1970 الحوليات المغربية لعلم الاجتماع 1970 P. 7 -8
IV- Michel foucault - Les mots et les choses
V- Docteur Weis Querber - Au Seuil du Maroc moderne - col. Notes et documents : institut des hautes études marocaines - Avant Propos.
VI- Paul Pascou
Le Haouz de Marrakech - Tome I

VII- André Adam
Bibliographie critique de sociologie d'Ethnolorgie et Géographie Humaine du Maroc
Alger 1972
VIII- Michaud Bellaire
La mission scientifique du Maroc
IX Edmond doutlé : Mission au Maroc
« En Tribu »
Avant Propos
X- Weisgerber ibid. P. 7-8
XI- Henri Moniot 1980 الثقافة الجديدة س 4 1980
XII- Paul Coataleu
Ethnologie barbare marocaines de sociologie in Annales. 1970. P. 5 - Rabat.
XIII نشرة معهد الدروس العليا المغربية لبوطي الرباط 1920
XIII-
XII- Paul Coataleu op. citlé p. 9
XV- Archives Marocaines 1971 - P. 262-263